(جَواهِرجِي بَاريس)

عماد، ذلك الركن الثابت شديد المحلية الذي لا يتناسب مع فخامة "جواهرجي باريس" نحيف وقصير كواحد من عيدان الكبريت، ذلك البنطال شديد الاتساع بلون الزيتون مع القميص البني بنصف الكم صيفًا والمعطف الأزرق شتاءً، ذلك الذي تحول للأسود مع عوامل الزمن.

أتحدث عن نفسي لأنني لا أجد من أتحدث إليه، الجميع هنا ينظر إليَّ كصندوق قمامة لا يتناسب مع رونقهم ويجب التخلص منه، لكن لا أحد يدرك سرعتي ولا يقوم بالمهام التي أقوم بها فضلًا عن راتبي الذي لا يكلف صاحب المحل أكثر مما ينفقه على غداء واحد، لكنه يكفيني، سريع كأنني أطير فيلقبونني "عجلة" حتى أنني لم أسمع "عماد" منذ وفاة أمي.

يدخل إلى المحل ممسكًا بذراع شريكته وعلى وجهه ابتسامة يقتسمها معها فتتسع ملامحهما وتضيق أعينهما وتشرق لهم الحياة، على يمينه أمه وعلى يسارها أمها، مشهد يوحي بالفرح، الترحيب من الجميع والمباركة على الحضور وأمنيات بحياة سعيدة، وظيفتي التي أمارسها حينما لا أجد ما أقوم به، أراقب ملامح الوجوه وأفسر الهمس واللمس وأخمن قصصًا تجري باقتضاب، عصفورة رقيقة تمارس حقها في اختيار هدية زواجها وما ترتديه طول عمرها، يحيطها غرابين يطبقان على أنفاسها، تلك التي تزيح ابنها من جانبها للتمكن من إحكام الحصار

عليها وإبداء اشمئزازها من كل ما تختاره، والأخرى التي تطعن في ذوقها وتمسكها بالرديء،

شريكان ينشدان الحب وكهلان يشبان حربًا، تضرب الحماة من البداية لتخبرها أن رأيك لا يخصك وحدك وأنني طرف من حياتك، وتخبرها الأم أنها حتى بعد زواجها لن تخرج عن سلطتها، أتابع العصفورة الرقيقة وهي تجرب الخواتم ما بين التقليدية والحديث والموضة الجديدة لتعلن صراحة أن الاستقلالية لي وحدي، تقفز بسعادة ممسكة بيده أنها أخيرًا وجدت ضالتها والتي تسكن بين أصابعها، ملامح مصارع يضرب خصمه بكل قوته ثم يصافحه بعد نطقه "وها أنا انتصرت"

يدخلان بوقار وهدوء، يبدو في أوائل الأربعينات بنظارته الطبية وخصلاته الفضية المتبعثرة وسط شعره، ملامحها نقية تحاول الابتسام قدر الإمكان، منتصف الثلاثينيات أو أكبر بقليل، تحمل بين يديها علبة كبيرة من القطيفة، تبدو جديدة وكأنها لم تعش سنوات طوالًا، الحفاظ على الحب يبقيه جديدًا ونظيفًا ورقيقًا، يبدو أنهما عاشقان منذ أن تزوجا، ينطق الأستاذ حسن "سبعة وأربعون ألفًا وثلاث مائة" تنظر له وكأنها تقول، لكنك تحتاج خمسين ألفًا، تتحدث عيناه، بقي القليل وسأدبره، تقول دعني أتصرف وامنحني فرصة أن أقدم لك أي شيء، بسرعة تخلع الحلقات المعلقة بأذنيها واضعة إياها على الميزان ثم محاولة ترتيب خصلات شعرها، تبتسم بحب مساندة له وعلى وجهه ملامح امتنان رغم اجتياح الحزن تفاصيله وغياب ملامحه.

"يشتري لها الذهب تعبيرًا عن الحب وتبيعه من أجله لإثبات الغرام"

الحب يضيء رغم كل شيء، على الأقل يزيل كآبة الأسود ويمنح للحياة طعمًا.

خمسينية تقبل في تثاقل، تتحامل على عكاز من المعدن، بشرة بيضاء في حجابها الأسود وعباءتها، ممتلئة الجسد وتتنفس بصعوبة رغم خطواتها البسيطة، أسرعت لمساعدتها في الدخول، أثارت انتباهي ودهشتي على عكس ما يحدث في تلك المواقف، لا تهتم بالسعر الذي تبيع به، إذن لماذا تبيع، مهتمة فقط بالخلاص من العلبة التي في يدها، مصنوعات جديدة وعصرية، الأمر مُحير، تنهدت بسعادة إنجاز مهمتها، أسرعت أساعدها وبطريقتي في الحديث أجذب منها طرف الكلام لتفصح عن ما يشتت عقلي، قالت إنه لابنتها، تلك الوردة المتفتحة التي قطفها سهوًا وألقاها غدرًا، ما زالت تحبه رغم خيانته وتركه، تقاليد عائلتنا تحكم للعروس بالذهب، أراها تذبل أمامي وتبني أحلامًا عابثة على أمل أنه سيعود، قررت التخلص منه لأحرق أي أمل لديها وأحرق قلبه كما فعل بابنتي.

الخِسة والدناءة، تلك الصفة الحقيرة التي تميز فيها الإنسان على الحيوان، بل وبرع في ممارستها على أقرانه.

يدخل بمرح وفرح وسعادة تسبقه تفرش له المكان بالأمل، ملامحه تضيء وعيناه تنطق وصوته يرقص، أراقب ملامحه التي تتفحص قسم الأطفال، أريد خاتمًا لصبي، أو سلسلة لأنثى، ربما أسورة أو ما شاء الله، لا أعرف.

في النهاية قال: أريد خاتمًا وسلسلة بنفس الحرف، سأله الأستاذ حسن: ما الاسم؟!

أجاب: لا أعرف، لكن زوجتي أخبرتني منذ نصف ساعة بخبر الحمل.

تدخل مع لابنتها لتختار هديتها بنفسها، تبارك لها في كل لحظة وتقول للقادم والآتي إن ابنتها الأولى على مدرستها، ابنتها شَّرفتها أمام الجميع، خطف نظري الصغيران في الخارج، تبدو عليهما المراهقة الحالمة، لم يدخلا المحل بالتأكيد، الملامح الأولى لكل شيء، الحب الأول بسذاجته وبرائته وخجله وعنفوانه وأحلامه وقصر عمره، يشاهدون المعروضات بالخارج، يمكنني توقع الحديث، يقول لها بعد عام أو عامين سنكون بالداخل نشتري هدية خطبتك، تبتسم بخجل وأمل وتدقق في الأشكال، يختلفون حول خاتم، يقول إنه تقليدي وتقول إنه رقيق، ثم بعد جدال طال له ما طال يتفقان أخيرًا، سخرية تزيدني ضحكًا وألمًا، يستحيل أن تبقى نفس المعروضات بعد شهر في الوقت الذي لا يملك فيه ما يجعله يدخل المحل بل إنه يمارس رفاهية الاختيار والجدال والاختلاف على الذوق.

في ملامحه التعالي هكذا في نظري كل من لا يبتسم، أنا أفرض ضريبة على كل من يقابلني أن يصافحني بابتسامة حتى لو لم يعرفني أو لم نتقابل سابقًا، دون الابتسامة تعقد معي اتفاقية على الجفاء، أشحت بنظري عنه إلا أن توتره ونفاد صبره جعلني أشفق عليه، علبة فاخرة بها العديد من القطع، ما بين النسائي والأطفال وحديث الولادة، كلما أخرج أستاذ حسن قطعة ليزنها، جذبها بسرعة وقال إن تلك القطعة بالتحديد لا يرغب في بيعها، كل القطع يقتنصها حتى لم يتبقَ شيء فأخذ علبته ورحل، قبل أن يخرج تجاذبت معه الحديث بنوع من المرح، قلت له دعني أريحك، قال ليتك تريحني بإرسالني إليهم في السماء.

حتى القدر قد بخل عليَّ واستثناني من الحادث وحال بيننا الفراق المُوجع.

عماد اسمًا وعجلة صفة، تعودت أن أفرح مع الفرحين وينقهر قلبي مع الموجوعين، أرقص وأجمع علب الكولا والعصائر، ثم أواسي بصمت أو عون للموجوع قلوبهم، سريع في الجري وأكثر سرعة في فهم الناس.

***